حدث ذات يوم ... في "الجبل الأقرع"

قصة بقلم أحمد بوزفور

سافر في الليل . كان قد جهز كل شيء .. الخبز و« السمك والماء والقهوة والمجلة . والبندقية والرصاص .. ووضع الاشياء كلها على المقعد الخلفي ، ووضع فوقها معطفه،وانطلق في شوارع المدينة الفارغة خفيفا كالشبح. كانت العجلات تعانق الاسفلت في هيجان صامت ، والسكارى يعانقون الجدران في يأس .. خفيفا كالشبح .. كأنما يجري على قدميه لا في سيارته ، كأنما هو الذي يجري باربع عجلات ، الاضواء والواجهات تلفت اجيادها مسرعة لتجده قد اختفى .. انفلت من بين اصابع الجدران الملوثة كالماء النقي ، وصافحه وجه القمر في الافق البعيد فهشت نفسه ، وخامره حنين مجهول.. خفض زجاج النافذة وشم هواء الليل في عمق وقوة .. فتح الراديو فلطم اذنيه موال مبحوح .. اغلقه ، واخذ يستمع الى صفير الريح وهسهسة العجلات .. كان عليه ان يذهب بعيدا .. مئات الكيلومترات ، وكان ينبغي أن يملأ خزان النفط ثلاث مرات على الاقل قبل ان يصل الى « الجبل الاقرع » .. جبل الغزلان .. « الغزلان فيه اكثر من الحصى » هكذا قالوا له .. « ولكن عليك ان تفاجئها في الصباح الباكر او تنتظر حتى القيلولة » .. سأشرق عليك قبل ضوء الشمس يا اقرع .. اما في القيلولة فسأنام في سفحك بين صفين من الغزلان .. ومع العصر اقفل راجعا .. لادخل المدينة في الليل كما خرجت منها .. وحين تسأل المدينة عني سأقول لها : ها انذا .. فيك كنت وما زلت ولم اغادرك قط ولن افعل .. ها .. ها .. كاللص أسرق نفسي منك يا مدينة كالفارس اغتصب غزلانك يا اقرع .. كالعفريت اطير بك في احشاء الليل والريح ياناقة ـ الحديد .. الريح تفازل الحديد .. تبكي .. تتأوه من اللذة ، والحديد يفتح جسدها .. يطعن رحمها في قوة وعنف وهي تتأوه من اللذة وانا بين جسديهما المتعانقين اسرى خفيفا كالشبح الفار ..

* * *

سار مسافة طويلة على الرمال الندية قبل أن يقف، اطفأ المحرك .. وخرج .. تمطى واستنشق الصباح المتفتح .. اتكأ على سيارته ورعى بعينيه الجبل الممتد في الصحراء كدينا صور نائم .. قال لنفسه ، لو نفزته لانتفض ، ولافترسني .. وربما متحديا انحنى.. والتقط حجرا ، ومى الجبل النايم في خاصرته . فلم يتحرك الجبل .. ضحك .. فملأ النسيم الرطب فمه .. فتح فمه بقوة .. واطلق يديه .. وعانق الصباح .. تمطى ... ثم قال لنفسه : ينبغي ان لا اضيع الوقت . حمل البندقية .. القمها الرصاصتين .. اغلق ابواب السيارة .. ثم انطلق الى الجبل دون ان يشرب قهوته .. السلام عليك يا جبل يا أقرع .. عم صباحا ايها الجبل الاقرع .. صديقا جئت لا عدوا .. اريد القرى يا أبا الصحراء .. فأين تخبيء غزلانك ؟.. هيا .. لا تكن بخيلا ... صعد .. وصعد . تسلق .. وتسلق .. بحث بعينيه واذنيه .. جال في شعاب الجبل طويلا فلم يعثر على شيء .. لاجئا جئتك يا جبل الحجر والرمل والعرعار .. مستجيراً بك من ظلم المدينة وقهرها يا وطن الصبح والنسيم ، فهل تجيرني ؟.. غزالة واحدة اسكت بها سخرية الماسورة الثقيلة يا جبل .. يا جبل .. يا جبل .. لا شيء غير الحجر والرمل والعرعار .. وغير الشمس التي فتحت عينها المحمرة في غضب وقدضبطته متلمسا بالوجود .. هل تريدين ان امحو نفسي ياعاهرة؟ .. آه لو كنت على الارض .. اهبطي ان استطعت ، وساقطع يدي اذا لم اصطدك بالرصاصة الاولى .. هيا اذن .. تغضبين في السماء .. الغزالة ايضا تغضب في الكناس .. ولكن .. هل تستطيع الخروج .. تصّبب

العرق من جبينه .. وقف ، فزلت قدمه واستوى جالسا .. رمى البندقية في غضب .. مسح العرق بمنديله ورمى الشمس بنظره حاقدة .. التقط حجرا .. قذفها به .. فلم يصبها .. فجأة .. سمع حركة خفيفة ، التفت فرأى غزالة تجري .. اسرع الى البندقية .. نزع صمام الامان . . اطلق الرصاص في لهوجة فأخطأها .. رصاصة ثانية فأخطأها .. جرى من ورائها .. فلم يلحقها .. وقف على مرتفع واشرف على السفح البعيد .. فلم ير غير الضباب .. لسعته ريح خفيفة .. أراد ان يمسح العرق بالمنديل .. فلم يجده .. غضب .. هدأ .. غضب .. هدأ .. حزن .. جلس حزينا .. رمى البندقية .. نفض رأسه والتقط حجرا وضرب .. حجرا اخر .. ثالثا .. لا شيء .. احنى رأسه واخذ يلعب بالحصى بين رجليه وهو حزين .. مرت في ذهنه صور كثيرة متلاحقة ! اشجار وغيوم وسواق ، عيون وشفاه واثواب ، ضحكات وهمسات .. غروبات حالمه .. قطعان ورعاة .. استلقى ونظر الى السماء .. وضع ساعده على عينيه .. وفجاه .. اخذ يبكي .. شهق .. شهق .. والتقطت اذنه حركة خفيفة .. تسمع هادئا .. فاقتربت الحركة .. اقتربت .. ازاح ساعده في صمت وهدوء .. ففرقت في عينيه الباكيتين عينان واسعتان سوداوان .. كانت الغزالة تطل عليه قربت فمها من عنقه .. شمته .. فانتفض واقفا وهو يحاول ان يمسكها من قرنيها .. ولكنها افلتت اسرع الى البندقية واطلق الرصاص .. تك .. تك .. لا رصاص .. غضب .. اخرج الرصاص .. شحن بيت النار وهو يلتفت .. كانت الغزالة قد اختفت .. غضب .. اطلق رصاصة على الحجر .. فلم يسل دم .. التفت الى قمة الجبل غاضبا .. رمى البندقية .. واخذ يجري .. والقمة تفمزه .. جرى .. جرى .. صعد .. صعد .. وسال العرق .. وسالت الشمس .. وسال الرمل .. وسالت الدنيا .. وتعب .. ارتمى على الرمل منهكا .. استلقى على بطنه .. اطلق يديه ورجليه .. ونام .. حاول ان ينام .. استرخى .. وفي ذهنه فراغ .. استرخى طويلا متحديا اشعة الشمس .. وفجأة سمع الحركة .. فتحفزت حواسه .. ودق قلبه ، وامال راسه في بطء .. فتح عينه اليسرى فرآها .. قريبة منه .. قدر في ذهنه المسافة .. ترجمها لعضلاته .. قفز .. فتلقفته الرمال .. ووقفت الغزالة على بعد اخر تنظر مدهوشة .. استلقى مرة اخرى .. وضع راسه على يديه .. واخذ يفكر : لا فائدة .. ستقتل نفسك قبل ان تقتلها .. اعني قبل ان تصطادها .. قبل ان تأخذها .. قبل ان تعانقها .. فجأة احس بانفاس رخية تداعب قفاه .. انقلب على ظهره وبقي مستلقيا .. نظر اليها .. ابتسم في حزن .. خاطبها متلعثما : انا حزين يا سيدتي .. حزين وتعب ومريض .. انت لا تفهمينني .. انا .. انا هارب .. انا .. ورائي المدينة .. ورائي الحديد والجدران .. اقصد ان . انهم يصطادونني .. هل تفهمينني ؟.. سرطان من الازقة والجدران والسيارات والاعمدة والاضواء والكلمات .. يصطادوني .. انا هارب . .هربت .. ولكني مصاب .. هل تفهمينني ؟ اصابني السرطان في كبدي من الطلقة الاولى .. انا هناك وهنا .. المدينة هي التي اطلقت عليك النار لا أنا .. أنا .. انا .. انا انسان محتل .. هل تفهمينني ؟. كلي مستعمرات .. في محنى .. في قلبي .. في دمي .. كل كرياتي البيضاء والحمراء جنود يسكرون ويكسرون زجاجاتهم في عروقي .. هل تفهمينني؟ انا .. انا .. لا تفهمينني ؟.. آه لو فهمت يا سيدتي .. لو فهمت الدنيا .. لو فهمت الاشياء .. لو فهمتني دون ان اتكلم .. كم سيكون العالم حلوا حينئذ !.. هل .. هل تفهمينني ؟..

جلس .. وضع يديه على ركبتيه .. وضع عليهما راسه وانخرط في البكاء .. اقتربت منه .. شمته .. حكت عنقه بشفتيها .. شفتاها طريتان .. وباردتان .. هل تقبله ؟.. تدغدغه في رفق .. تدغدغ .. تدغدغ .. ضحك في صمت .. آه لو فهمت ؟.. كيف يحكي لها ؟.. الاشياء في ذهنه معجونة كالوحل .. مختلطة غائمة ثقيلة .. اقول لك .. ماذا اقول ؟.. الوداع يا سيدتي .. انا انسان مدنس .. اعذريني .. سامحيني .. لوثت صمتك الطاهر بالرصاص .. والكلام .. وداعا

تابع الجلوس قليلا .. ثم نهض .. واخذ يهبط الجبل في اعياء .. وذهنه فارغ .. سار .. سار .. هبط .. تكسر الضوء في عينيه .. رأى بندقيته .. انعطف اليها .. حملها .. التفت .. فرأى الغزالة تنظر اليه صامتة .. كان ذهنه فارغا . ادار البندقية .. صوبها في هدوء اطلق النار .. وهذه المرة اصابها ..

الدار البيضاء (مراكش) **احمد بوزفور**

فارس مدينة القنطرة

مجموعة قصص
بقلم الدكتور

عبد السلام العجيلي

صدر حديثا

٢٥٠ ق.ل.

منشورات دار الآداب